دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

التوبة

للأب متى المسكين

إن كانت البشرية قد سعدت بعصور الإيمان الأولى وانتعشت بالشهادة كختم للإيمان، فلا يزال ينتظرها عصر للتوبة سيكون من أزهى عصورها الروحية ولا يقل في إسعاده وازدهاره عن العصور الأولى، إن هي مارسته عن صحة. لأن التوبة هي نصرة ثانية للإيمان، وهي بحد ذاتها شهادة جديدة. فالعودة إلى الإيمان الأول شيء يكاد يكون ألذ من بدء الدخول فيه.

الثمن ٣٠ قرشاً

إسم الكتاب : التوبة

المؤلف : الأب متى المسكين.

الطبعة الأولى: سنة ١٩٧٩

الطبعة الثانية : سنة ١٩٨٣

مطبعة : دير القديس أنبا مقار ــ وادي النطرون.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٣٩٣١ / ٨٣

رقم الإيداع الدولي: ٧ ــ ٠٠٠ ــ ٤٤٨ ــ ٩٧٧

التوبــة

• • •

(موسم التائبين)

إن كـانـت الـبشر ية قد سعدت بعصور الإيمان الأولى وانتعشت بالشهادة كختم للإيمان، فلا يزال ينتظرها عصر للتوبة سيكون من أزهى عصورها الروحية ولا يقل في إسعـاده وإزهـاره عن العصور الأولى، إن هي مارسته عن صحة. لأن التوبة هي نـصرة ثـانية للإيمان، وهي بحد ذاتها شهادة جديدة. فالعودة إلى الإيمان الأول شيء يـكـاد يـكـون ألذ من بدء الدخول فيه. أنظر إلى فرح الأرملة بالفلس الضائع؟ أنظر إلى فـرحة الراعي بالخروف الضال أكثر من التسعة والتسعين الرابضين في الحظيرة؟ هـكـذا يعلمنا الرب أن لذة رجوع التائب إلى حضن المسيح تعادل في قوتها وكرامتها عنده وعندنا حظيرة بأكملها، أي كنيسة.

وهـكذا شاء الله ــ تبارك اسمه ــ أن يجعل للتوبة كرامة مضاعفة وإسعاداً ولذةً وفـرحاً حتى يشجع الراعي وحتى لا ييأس الإنسان الخاطىء أو يخجل من المجيء إلى حـضـن المـسيح! وحتى يثبُت فخر الصليب عوض عار الخطية و يتمجد الإله الوديع الـذي هـو على اسـتـعـداد أن يـبرر الفاجر. لذلك يقول إن السماء كلها تفرح بتوبته وتـهـلـل بـتبر يره، فكأن التوبة أفخر أعمال البشر ية، وهذا حق لأن التائب إنسان قـد اسـتـجـاب لـقـدرة الله على الغفران والتبر ير، فربح بفعل ندامته ثمرة الصليب وتـقـديس الله!! أنظر كيف يستطيع التائب بحزن تو بته أن يُفرح السماء كلها وقلب الله؟

لذلك لما تحقَّق القديسون من كرامة التوبة والندامة التي هي أصلاً للخطاة والزناة والمتوانين، اغتصبوها لأنفسهم وأخضعوا ذواتهم لأفعال التوبة الصارمة كخطاة، كمتوانين، بحذق ومهارة فائقة حتى ظن الناس أن التوبة هي عمل القديسين والندامة من فعل الأبرار!

أما نحن الأشقياء فنظن أن برّنا يقدمنا إلى الله وأن صلاحنا وتقوانا وعلمنا وخدمتنا وغيرتنا تؤهلنا للشركة مع السمائيين، غير عالمين أن «كل شيء عريان ومكشوف لعيني ذلك الذي معه أمرنا» (عب ٤ : ١٣)، وأنه ليس فينا شيء صالح نتقرب به «ليس من يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد!!» (رو ٣: ١٢) و«أعمالنا كلها كخرقة دنسة» (راجع حز ٣٦: ١٦)

آه لو علمنا أن المسيح جاء «ليبرر الفاجر» (رو ٤ : ٥)، ولكي يدعو «التي ليست محبوبة محبوبة!!» (رو ٩: ٢٥). لو تيقَّنا ذلك، لجحدنا في الحال كل بر لنا وكل صلاح أو تقوى كاذبة وكل المظاهر المصطنعة ولتَقدَّمنا إليه في الحال كفُجّار لا نستكثر خطيتنا على دمه ولا نستثقل دنس أنفسنا على محبته.

ليس للإنسان أن يبرر الفاجر لأنه لا يستطيع. هذا فعل إلهي وقدرة فائقة لا يعقلها الإنسان، إنه غنى السماء الذي انسكب مع دم المسيح في قلوبنا، إنه غنى عطاء وسخاء كلي، إنه لطف الله الممزوج بعطف جارف ومحبة مغلوبة من تحننها لم تستطع أن تشفق على نفسها يوماً فذبحت ذاتها على الصليب من أجل مذلة الخطاة.

تبرير الفاجر سر إلهي من أسرار التدبير الغزيرة العمق في مضمون الخلاص، حتى إنه يكفي للإنسان أن يؤمن فقط بأن الله قادر أن يبرر الفاجر فيُحسب له إيمانه هذا براً بحد ذاته. فما بالك لو تقدم الإنسان إلى الله، كفاجر مؤمن أنه يتبرر بفعل

قدرة الله على التبرير والتقديس، فإنه في الحال يدخل إلى عمق سر الخلاص غير المدرك.

المسيح يسوع جاء إلى العالم ليخلّص الخطاة!!

الخاطيء، نعم الخاطيء!!

الذي هو كمية من النجاسة معجونة بشهوات وشرور وغرور وخبرات مؤلمة في الفجور.

الخاطيء الذي هو رذالة عند الناس وعند نفسه، هو هو سبب مجيء المسيح إلى العالم!!

الخاطيء الذي يحس في نفسه بحرمان كلي من كل ما هو مقدس وطاهر وجليل بسبب الخطية.

الخاطيء الذي يرى نفسه في ظلام وقتام منفصلاً عن رجاء الخلاص ونور الحياة وشركة القديسين. هو هو نفسه صديق المسيح المدعو لحفل عشائه، الذي أرسل يطلبه من وراء السياجات و يطلبه شريكاً لعرسه ووريثاً معه لله؛ وقد وعد أن لا يذكر له خطية واحدة مما فعل بل أن ينساها كغيمة صيف يبتلعها وهج الشمس.

أليس من أجله صلب نفسه واحتمل الذل والهوان؟!

إن قدرة المسيح الفائقة كإله يفدي ويحب حتى الموت، لا يمكن أن تُدرَك ولا أن تُختبر إلا في شخص الخاطيء المطروح على الأرض منبوذاً من كل الناس!!

بدون الخاطيء لا نفهم محبة المسيح ولا يُقاس عمقها ولا يكون لها فعل يكشف تفوقها الإلهي!!

المحبة الإلهية تظهر جليلة في عين الإنسان جداً حينما يتعرف عليها وهي متنازلة إليه، بينما هو يكون ساقطاً في حالته المزرية.

من أجل الخاطيء انكشفت أسرار حب الله للإنسان وانفتح علينا غنى المسيح، الغنى الموهوب مجاناً بدون ذهب ولا فضة.

يا لعظمة فقر الخاطيء، ففقر الخاطيء الشديد هو وحده الذي يستنزف غنى المسيح في ثقة كثقة الطفل الجائع حينما يستنزف اللبن من ثدي أمه!!

المسيح لا يُغني غنياً، ولا يُشبع شبعاناً، ولا يبرر باراً، ولا يفدي مقتدراً، ولا يعلّم عالِماً، ولا يطلب موجوداً!!

غنى المسيح للفقراء والمساكين والمطرودين والمحتقرين المذَلّين عند أنفسهم، ودسمه للجياع وبره للخطاة ويمينه للساقطين وعلمه للأطفال وللمتصاغرين عند أنفسهم!!

فمن كان فقيراً أو جائعاً أو خاطئاً أو ساقطاً أو جاهلاً فهو ضيف المسيح!!

المسيح نزل من مجد مُلكه يطلب الذين في الحضيض، الذين بلغوا حالة مذلة وهلاك وظلام مزري، الذين فقدوا الأمل والرجاء في أنفسهم، لأن في هؤلاء يظهر فعل قدرته واقتدار لاهوته، حينما تنبري لهم محبته المذبوحة لتقيمهم من الطين والمزبلة وترش بالدم المقدس وتغسل كل عضو تنجس. وفي مثل هؤلاء يتعظم صلاح الله إذ يجد فيهم مجال ترفُّق وشفقة وحنان. وفي نفوس هؤلاء المزدرى بهم والمنبوذين يرتاح اتضاعه إذ يجد في التنازل إليهم عملاً لوداعته.

آه لو علم الخطاة أنهم عمل الله ومسرة قلبه «نحن عمله» (أف ٢ : ١٠)، لو تأكد الخاطيء أن مكانته عند الله هي المكانة الأولى في اهتمامات القدير وتدبيره منذ الأزل وأن بال الله ظل مشغولاً بعودته كل الدهور وأن السماء كلها تترقب رجوعه، لما خجل من نفسه أو احتقر قدرته أو أجّل عودته!!

لو علم الخاطيء أن كل ذنوبه مع تعدياته وضعفاته هي موضع إشفاق الله،

ومحل عفو وسماح، وأنها مهما تعاظمت وتفاقمت فلا يمكن أن تصدّ قلبه أو تطفىء رحمته أو تعطل حبه ولا إلى لحظة واحدة!!

آه لو علم الخاطيء ذلك، لما تمسّك بخطيته ورضي بالظلام والتمس البعد عن الله كحاجز يغطي خجله عن رؤية وجه الله الذي يتودد إليه و يناديه!!



«هلم نتحاجج، يقول الرب: إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيضُّ كالثلج. إن كانت حمراء كالدودي تصير كالصوف»

(إشعياء ١ : ١٨)

هذا هو الله المتنازل إلينا دائماً؛ الذي لما علم أن الخطية تُضعف قلب الخاطىء وتدخله في حالة اختباء وحياء مميت لتصده عن المجيء إليه حتى لا يحيا، أخذ

ينادي الخاطىء و يلحُّ في ندائه و يدعوه للمحاجاة والمناظرة!!

الخاطيء يظن أن الخطية تمنعه عن طلب الله، مع أنه بسبب هذه الخطية نزل المسيح يطلب الإنسان! ألم يأتِ الله إلى جسد الإنسان ليشفي المرض الذي فيه و يكفِّر عن الخطية التي ملكت عليه وليقيمه من لعنة الموت؟ لم تعد الخطية قادرة أن تفصل الخاطىء عن الله بعد أن أرسل ابنه ودفع الثمن كل الثمن على الصليب، ولكن هو خوف الخاطىء وحياؤه ووهمه الكاذب الذي يخفي جنب المسيح المجروح الذي فيه يمكن أن يتطهَّر العالم كله عدة مرات!!

الخطية لم يعد لها حق وجود أو سُكنى في طبيعتنا الجديدة، إنها أصبحت كبقعة على ثوب، تُرفع في الحال في أقل من طرفة عين حينما يتوب الخاطىء و يطلب وجه الله.

ليس على الخاطىء أن يتلفت ليلتمس قوة من ذاته أو واسطة غير دم المسيح ليدخل بها إلى الله ليجد الفداء والمغفرة، لئلا يهين حب الله ورحمته الفائقة و يعيب قدرته ولطفه وحنانه. ولكن له في كل قديسي الكنيسة وتائبيها عوناً في قدومه!! ونحن قد رأينا وسمعنا ونشهد أن عظمة مغفرة الله وكلية صفحه وقدرة تقديسه للخاطيء لا تبلغ منتهى قوتها وعظمتها إلا عندما يبلغ التائب أقصى ضعفه.

يوجد خاطىء مزيف يتكلم عن نفسه أنه الخاطىء الكبير و يتحدث عن خطاياه التي بلا عدد، ولكنه في نفسه لا يراها حقيقة وهي لا تسبب له حزناً أو وخزاً في الضمير. ليس لمثل هذا توبة وإن كان له ألف عمل وألف صلاة كل يوم... فالمسيح طبيب ماهر يميز بين المريض ومدَّعي المرض.

المسيح لم يجيء بماء فقط ليغسل وسخ الجسد، بل بماء ودم ليغسل أولاً جروح الخطية الدامية التي مزقت قلب الإنسان وضميره، ثم يمده بجرعات طاهرة من دمه

المحيي ليفيق من إغماءة الموت و يقوم ويحيا.

وحينما وصف إشعياء النبي خطايانا باللون القرمزي (أي الأحمر) كان في الواقع يشير إلى نزيف الخطية التي صبغت حياة الإنسان بصبغة الموت!! والنزيف دائماً يوقع الإنسان في الإحساس باليأس والخطر كمطعون في القلب أو كقاتل تلطخت يداه بالدم؛ فأصحاب مثل هذه الخطايا ذوو الضمائر النازفة المثقلة المغمومة اليائسة هم مدعوو إشعياء إلى لجة غفران الله ورحمته. هؤلاء هم الذين من أجلهم نزل المسيح من عند الآب يطلبهم على رابية الجلجثة... أنظره وقد رفع يديه على الصليب ليكشف سعة حضنه يطلب المفقودين و يرفع اليأس من قلوب اليائسين!!

المسيح جاء ليطلب الخطاة الحقيقيين الرازحين تحت وخز الضمير واليأس، لا يلتفت إلى الكاذبين مدّعي التوبة الذين يدينون أنفسهم أمام الناس ليزدادوا شرفاً بإتضاعهم ولتتمجد سيرتهم كتائبين وهم ليسوا تائبين.

المسيح جاء ليدعو المأسورين بالإطلاق، يجري وراءهم في مكامن الظلام؛ فإن لم تكن قد أحسست بأسر الخطية واستشعرت ظلمتها واستيقظت لرعبتها الخانقة، فكيف تصرخ من الأعماق؟ وإذا لم تصرخ صراخ الخطر، فكيف يسمع المنقذ صوتك وأين يعرف مكانك؟

المسيح جاء ليعطي النظر للعميان، فإذا كنت لم تكتشف عمى قلبك ولم تحس بالحرمان من النور الإلهي، تحاول أن تفتح أعين غيرك وأنت لا تبصر، فكيف يهبك الرؤيا وأين يضع لك النور؟

جوهر التوبة شعور بالخطية، صراخ من ألم الجريمة، تحقُّق من انعدام النور.

● ● ●



«الإرادة حاضرة عندي وأما أن أفعل الحُسنى فلست أجد» (رومية ٧: ١٨)

هذه عقبة كؤود حجزت الكثيرين عن الدخول إلى التوبة. يقف الخاطىء على باب التوبة يستجمع إرادته فلا يجد رصيداً يكفي حتى للبدء في أي عمل صالح، ثم يقارن نفسه بالذين فازوا بالرحمة والغفران فلا يضبط قوة. تخونه الشجاعة و يغطس في لجة اليأس والقنوط... و يرى التوبة وكأنها عمل شاق!!

هذه خدعة العدو، فمن قال أن التوبة استجماع إرادة أو فعل شجاعة أو مقدرة ونشاط؟

أليست التوبة هي السقوط في يد الله، والإرتماء تحت قدميه في إعياء الإرادة، بقلب مجروح يدمي بالندم وأعضاء هشمتها الخطية لا قوة لها على القيام إلا برحمة الله؟!

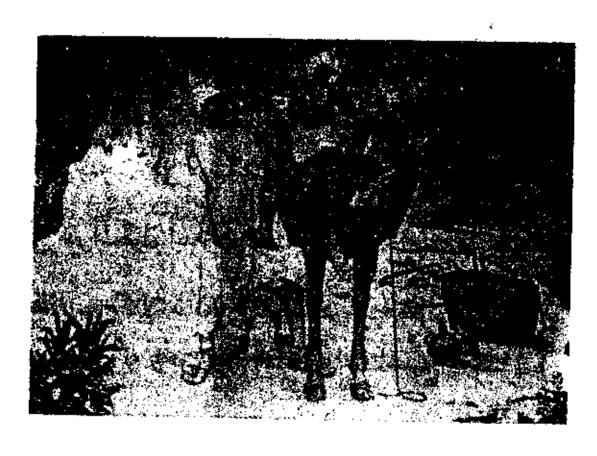
التائب وصفه المسيح بإنسان غريب الجنس وقع بين اللصوص في بلد غريب، فعرُّوه وسلبوه وفضحوه وجرحوه وتركوه ميتاً أكثر منه حي!! التائب كإنسان عرّاه الشيطان من ثوب كرامته، فتعرت إرادته وتدنست أعضاؤه. ثم سلب كنزه، وكنز

الإنسان رزانة عقله ونور بصيرته وحركة ضميره، فانفضحت جبلته وانكشفت سقطته وانحطت مشيئته. وأخيراً جرحه بالشهوة جرحاً بليغاً يستنزف حياته سريعاً، ثم تركه في النهاية كميت لا يستطيع أن يحيا!!

هكذا لم يجد السامري الصالح فرصة لسؤال أو متسعاً لملامة بل تلقفه على يديه حالاً!

والسامري الصالح كان في المثل (لو ١٠: ٣٠ــ ٣٧) هو المسيح وقد صحَّ ظننا تماماً فلم يؤنبه بكلمة ولا طالبه بحركة، بل أتى إليه بنفسه حيث سقط وانحنى عليه بحبه، وغسل وضمَّد جرحه بجرحه، وأوقف نزيفه بنزيفه، وصب عليه من زيت حنانه وخمر حياته، وحمله على ذراعي رحمته وأركبه إلى فندق كنيسته وأوصى ملائكته بخدمته، وصرف عليه من نعمته حتى قام وتعافى!

هذا هو التائب، إنسان بائس سقط على الطريق بعد أن اغتاله ظلم الإنسان وحقد الشيطان فما عاد يقوى على شيء؛ فلما نزف قوته أصبح له عند الصالح مكان، مكان في القلب ومكان بين ذراعيه وعلى دابته وفي ملكوته!!



«الأجنَّة دنت إلى المولد ولا قوة على الولادة»

(إشعياء ٣٧ : ٣)

هذه أيضاً حالة الخاطىء حينما يقف على باب التوبة وهويتمخض برجاء الخلاص وتجديد الحياة، ولكن إذ ينظر إلى الماضي الذي دنَّسه يبكي، وإذ يتطلع إلى المستقبل الذي يشتهيه يغشى عليه؛ لأنه يجد أن الضعف تغلغل كيانه وما عاد يملك القدرة أن يستخلص نفسه من الوحل والضعف يحيط به، وضعف يقود إلى ضعف... وكأنما الخطية كمرض الذبول الذي يصيب النباتات فلا يتركها إلا وكآبة الموت تلفُّها من كل جانب؛ هكذا الخطية تماماً تنخر في كيان الإنسان، تريد أن تطرد روح الحياة...

الإنسان ليس فقط ضعُف بالخطية بل مات بها فعلاً. والمسيح لما أتانا جاء وهو يعلم أننا «أموات بالذنوب والخطايا» (أف ٢ : ١). والميت بالخطية إنسان حُبل بالإثم فأصابه بعد زمن مخاض الموت. وميلاد الخطية دينونة موت محقق يستشعره الخاطىء في أعماقه.

المسيح اختطف الخطية من بطن الإنسان ففدانا من موت محقق، وعوّض الخطية دخل المسيح أعماقنا وتصور في أحشائنا فتجددت جبلتنا، فبعد أن ملك الموت علينا ملكت الحياة فينا ومخاض الموت انقلب فصار بهجة حياة ونجاة. لقد جاز المسيح الموت لكي ينجينا من موت مثل هذا، وهولا يزال حياً!!

حقا إنه من غير المعقول أبداً أن يموت إنسان صالح عوض إنسان خاطىء!!

ولكن الله ليس كالإنسان، فكل ما هو غير معقول وكل ما هو مستحيل صنعه الله لما «بيّن محبته لنا لأنه **ونحن بعد خطاة** مات المسيح لأجلنا» (رو ٥ : ٨).

إذن، فخطية الخاطىء وعاره الشديد بسبب الخطية الرابضة في أحشائه ورائحة الموت التي تسري في كيانه بسبب آثام حياته السالفة، هذه كلها قاسها الله بحبه العميق ووجد لها حلاً بنزول ابنه إلى أحشاء البتول ليثمر من بطنها ثمرة حياة عوض ثمرة الخطية التي حبل بها الإنسان؛ وعوض ضعف مخاض الموت الذي تكلم عنه إشعياء حتى لم يعد الإنسان يضبط قوة، ظلل الله الحشا البتولي بقوة العلي فوُلد ابن الإنسان، و يا له من ميلاد، وُلد إلهاً!!

الخاطىء مدعو أن يثق في عمل المسيح الذي أكمله بميلاده و بصليبه عن **خطية** الإنسان، وعن **ضعفه** الشديد، وعن **موته**. وغير مطلوب منه (أي من الخاطىء) إلا أن يمد يده كالمرأة نازفة الدم (لو٨: ٤٤) و يلمس ثوب المخلِّص وحينئذ سوف يرى كيف تخرج قوة من الرب لتسكن فيه! فيقف النزف، و ينقلب الضعف إلى قوة، والموت يهرب أمام الحياة!!

ألا تمد يدك لتأخذ نصيبك من القوة حتى لا تكون بعد ضعيفاً ولا ميتاً... ليتك تذكر هذا حينما تهتف مع خورُس جمعة الآلام: «الرب قوتي ونشيدي وقد صار لي خلاصاً» (خر١٥: ٢، مز١١٨: ١٤)

إن أردت أن تعرف كيف تسري قوة الله فيك فاذكر أريحا كيف سقطت أسوارها لا بسيف ولا بحرب بل بهتاف النصرة بإسم الرب، واذكر البحر الأحمر كيف انشق بعصى التوكل على الله، واذكر الأُردن كيف انفلق تحت أرجل الكهنة.

إن قوة الرب هي هي دائماً للإنسان الضعيف المتضايق المتحير المظلوم.

• • •



«أما عرفتَ، أم لم تسمع؟ إلهُ الدهر الربُّ خالقُ أطراف الأرض لا يكلُّ ولا يعيا. يعطي المعيي قدرة ولعديم القوة يُكثر شدة. الغلمان يعيون و يتعبون والفتيان يتعثرون تعثراً، وأما منتظرو الرب فيجددون قوة. يرفعون أجنحة كالنسور، يركضون ولا يتعبون، يمشون ولا يعيون.»

(إش ٤٠ : ٢٨ — ٣١)

«لأنك طرحتني في العمق في قلب البحار فأحاط بي نهر، جازت فوقي جميع تياراتك ولججك. فقلت قد طُردت من أمام عينيك... قد اكتنفتني مياه إلى النفس، أحاط بي غمر، التفَّ عشب البحر برأسي، نزلت إلى أسافل الجبال، مغاليق الأرض عليَّ إلى الأبد... حين أعيت فيَّ نفسي ذكرت الرب فجاءت إليك صلاتى...»

(يونان ٢ : ٣ — ٦)

حالة إنسان يتمزق بأفكار الندم على خطاياه، ولكن في شك من رحمة الله، مطروح كغريق يجرفه نهر من التهيؤات والتصورات اليائسة، وكلما حاول أن يطفو ليتنفس الحياة تضغط عليه لجج ثقيلة من الظلمة العقلية فتطرحه بعيداً عن رجائه، فتغرق نفسه أكثر في هموم لا تنتهي، وكأنما اليأس بدا عليه كغمر محيط، تنقضُّ عليه

الأفكار المحزنة المتشائمة من كل جانب، والشك والضيق والحزن ملتف حول عقله كعشب البحر حينما يلتف حول عنق غريق و يسد عليه أسباب النجاة حتى لا يكون خلاص.

هذه حرب مُرَّة يجوزها الخاطىء الرازح تحت هموم آثامه الكثيرة حينما يفكر في الخلاص، فتنبري له شياطين الظلام للإنتقام، فلا ينفع الخاطىء حدة الفكر ولا يسعفه محاجاة العقل ولا قراءة الكتب ولا مشورة الحكماء. فالحرب حرب عقلية والعقل في محنة سَبْيٍ. إذن، فلا مناص إلا أن يأتي العون من العلا، من فوق العقل، من هناك من عند الله، الساكن في العلاء: «حين أعيت فيّ نفسي ذكرت الرب!!» (يونان ٢: ٧).

إلى هؤلاء التائبين المجرَّبين نقدم آية النجاة التي ستكون لهم كمرساة مؤتمنة تجذب النفس من وهدة الهلاك لتدخل بها إلى عالم النور والرجاء والسلام في حضن التوبة المريحة:

«كل خطية وتجديف يُغفر للناس»!! (مت ١٢: ٣١)

مبارك الإله الحي الذي سبق وعرف وقاس كل تجربة سنجوز فيها وكل حرب تُحاك علينا، وقد أمال بأذنه دائماً إلى صوت الصارخين ليتلقى أول إشارة استغاثة: «فجاءت إليك صلاتي إلى هيكل قدسك» (يونان ٢: ٧).

مَنْ في الآلهة مثل إلهنا، قريب من صلاتنا، قريب من دعائنا.
«الله لنا ملجأ وقوة. في الضيقات وُجد شديداً» (مز ٤٦: ١).

• • •

«دعوت من ضيق الرب فاستجابني...
صرخت من جوف الهاوية فسمعت صوتي...
قلت قد طُردت من أمام عينيك ولكنني أعود أنظر إلى هيكل قدسك...
أصعدتَ من الوهدة حياتي أيها الرب إلهي...
أنا بصوت الحمد أذبح لك وأوفي بما نذرته...
للرب الخلاص!»

(يونان ٢: ٢، ٤ــ ٩)

حينما يعيِّرنا العدو أننا صرنا هالكين بسبب تجاديفنا، نذكر قول الرب أنه «جاء ليطلب ويخلص **ما قد هلك**»...

وحينما يقول أننا أصبحنا خطاة ميئوساً من خلاصنا بسبب سُكنى الخطية في أذهاننا وأجسامنا، نقول أن المسيح مات من أجل الخطاة و«دم يسوع المسيح إبنه يطهرنا من **كل خطية**» (١يو ١: ٧).

وحينما يبكتنا بأننا تلوثنا تماماً وصرنا أثمة فاجرين عتقاء في الشر، نتمسك بالوعد: «لأن المسيح إذ كنا بعدُ ضعفاء مَات في الوقت المعين **لأجل الفُجَّار**» (رو ٥: ٦).

إن منطق الشيطان دائماً أبداً معكوس لأنه إن كان منطق اليأس عند الشيطان هو أنه بسبب كوننا خطاة فُجَّاراً نصير بالضرورة هالكين، فمنطق الرجاء عند المسيح هو أنه بسبب كوننا هالكين من جراء كل خطية وكل فجور نخلص بدم المسيح!!

من هنا تنبع الثقة في المسيح لدى الخاطىء التائب بمنطق لا يُغلب ولا يُهزم ولا يتزعزع.

ولكن الثقة في قدرة المسيح على الخلاص من أشد الخطايا تسلطاً ومن أعنف حالات اليأس، ينبغي أن تكون ثقة كاملة خالصة شديدة في شخصه هو؛ بدون تفكير ولا محاورة مع الشيطان، و بدون النظر إلى ضعف الإرادة والجسد، و بدون حساب للخسارة أو التكلفة. يلزم أن تكون الثقة في المسيح كاملة كالمسيح، قو ية كالمسيح، واثقة كالمسيح.

إذا كان المسيح جاء ليخلصنا، إذن فلا بد أن يخلصنا، و يستحيل أن لا يخلصنا، لأن خلاصنا هو عمل المسيح، و يستحيل أن يكون المسيح فينا بلا عمل. فقانون إيماننا يتحتم أن يشمل أننا نخلص ونصير للمسيح تائبين لأننا نؤمن أن المسيح جاء ليخلِّص الخطاة. ونحن إذ نعترف أننا أول الخطاة فنحن سنكون حتماً باكورة التائبين المفديين. وها نحن نتوب إليه كل يوم لا كأبرار أقو ياء، بل كفُجَّار وضعفاء!!

هو قد جاء ليطلب ما قد هلك، وهوذا نحن كهالكين نطلبه، وكمائتين نمسك بحياته.

• • •



«صرت مثل إناء متلف ... الخوف محيط بي»

(مزمور ٣١: ١٣).

«قد ذبت، لا أحيا إلى الأبد» (أيوب ٧: ١٦)

الخطية تحل الإرادة وتتلف الشخصية وتفكك أوصال النفس. فلا يعود الإنسان قادراً أن يضبط قوة أمام سطوة الشهوة وإغراء الخطية. وكما يسقط الفأر الصغير في مخالب القط بمجرد أن تقع عينه عليه، كذلك تنحل قدرة الخاطيء أمام أقل إشارة للشهوة. وكما يجمد قلب الغزال أمام رؤية الأسد فيخر صريعاً بين رجليه، هكذا يستسلم الخاطيء للفكر الشرير. وكلما يعزم أن يقاوم يسقط وإذا أقسم أن لا يعود، يعود. فلا يعود الإنسان يثق في نفسه، وتصير قدرته على الصلاح محتقرة في عينيه مكسورة كإناء متلف، وتصغر آماله في الله وتذوب كل إمكانياته في سبيل ذلك، و يصبح وكأنه عصافة تذريها الريح، أو كإنسان بلا رجاء في العالم.

هكذا يتمكن العدو أحياناً من النفس فيربطها بالخوف، الخوف من الخطية نفسها، فيسوقها كيفما يشاء وأينما يشاء، من خطية إلى خطية، ولا قدرة لها على معارضته، فتتبعه مسلوبة الإرادة مهدورة الكرامة مجروحة الشعور محزونة الضمير، لا قدرة لها على القيام ولا مسرة لها في السقوط!

إيه أيتها النفس المسكينة، ألا تذكرين مجد خلقتك الأولى ومجد خالقك؟ فأنت على صورته الخصوصية خلقك في الشجاعة والحق والقداسة والبر.

ولكن هل يعلم الله حقاً ما يصير إليه الخاطيء من وجع مثل هذا، وغمٍّ بمقدار هذا؟

للإجابة على هذا السؤال، إسمعه يقول: «أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف» (مت ٢٦: ٤١)، «يا امرأة... أما دانك أحد؟ ... ولا أنا أدينك. إذهبي

ولا تخطئي أيضاً!!» (يو٨: ١١)، «أتريد أن تبرأ؟» (يو٥: ٦)

إذن فضعفنا وذلنا كان محسوباً دائماً عنده منذ الأزل، وهو أتى أخيراً بنفسه ووضع ذاته في خدمة الضعفاء والخطاة المهزومين، وأقام روحه القدوس حارساً على نفس الإنسان يعمل ليل نهار ليطرد الرعدة وروح الخوف من قلوب الخطاة ويحولها هيكلاً ومكاناً لسكناه. والشخصية التي فككتها الخطية يجمعها الروح ثانية. والنفس التي أذلها الشيطان وهزأ بسلطانها وأذاب إرادتها تلمسها نعمة المسيح فتقوم وتتجدد وتتشدد.

نظرة واحدة للمسيح جعلت بطرس يترك ضعفه وانهزامه أمام الخدم والجواري، ويمسك نفسه و يسترد إرادته التي تكسرت كإناء متلف حتى ذابت نفسه أمام التهديد. ولكن من عيني المسيح استمد بطرس قوة توبة استعاد بها كيانه.

إن المسيح لا يزال يجول بين الخطاة، يشفي كل ضعف وكل سقم للنفس...

والروح القدس مستعد دائماً أن يُلبس الخائفين قوة من الأعالي...

والنعمة قائمة كل يوم تسند الأيادي المرتعشة والركب المخلعة...

ومحبة المسيح حينما تشتعل في القلب التائب تحوله من خائف إلى شهيد!!

وكم قلبت التوبة الضعف والإنهزام والإستسلام إلى شهادة وكرازة ومناداة بحق الإنجيل.

وذكرى مخاوف النفس الأولى و يأسها وانكسارها تصبح شهادة على رحمة المسيح...

والرعبة من حركة الخطية والشهوة تنحل كالدخان، والإذعان الذليل لدعوة

عشراء السوء يتحول إلى نصح ومصادرة.

وهكذا يخلع الخاطىء صورة الفاسد ليلبس الجديد بيد المسيح، والضعيف والجبان والخائف والمكسور والذي لا يضبط قوة يسمع الوعد من فم القدير:

«ها أنذا قد جعلتك اليوم مدينة حصينة وعمود حديد وأسوار نحاس... لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك... لا أهملك ولا أتركك تشدد وتشجع» (إر ١: ١٨، يش ١: ٥،٦).

• • •



«ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي (ناموس الخطية والموت) يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي. ويحي أنا الإنسان الشقي»

(رومية ٧: ٢٣و٢٤)

«كما يعود الكلب إلى قيئه أو الخنزيرة المغتسلة الراجعة إلى مراغة الحمأة؛ متى أستيقظ أعود أطلبها بعد»

(أمثال ٢٦: ١١؛ ٢ بط ٢: ٢٢؛ أمثال ٢٣: ٣٥)

قلق وهمٌّ كثير يصيب النفس لما تكتشف سطوة الخطية وتسلُّطها على الأعضاء، في إصرار وعناد وتبجُّح وقبح كثير، ورنة حزن ممزوجة بيأس ضاغط تسري في النفس عندما تتبين بعد المحاولات تلو المحاولات عدم جدوى العهود والوعود وأعمال التكفير والندم والدموع الكثيرة.

ولكن ما الحيلة؟ هذا قانون القداسة مطبوع بيد الله على قلب كل إنسان ينادي أعماق النفس بلا هوادة: إنه لا راحة ولا استقرار إلا في الطهارة، ولا فرح ولا سلام إلا في الكف عن الخطية!! وأي انحراف عن هذا القانون ينشىء في الحال منازعة كبرى مع الضمير، ومعارضة مع الحياة نفسها، وخصومة مع الروح وتغرُّباً عن هدف الخليقة، وتيهاً في ظلمة الفكر، واختلالاً في ميزان الحكم على طبيعة الأشياء، وتبرماً بالحق، و بالتالي عداوة مع صاحب القانون.

ولكن يحدث أن يتسرع الإنسان في حماس جاهل فيبدأ بالمصادمة مع الخطية مصادمة مباشرة. و ياللحزن حينما يتكشف له في الحال مقدار عجزه ومقدار سطوة الخطية!! وإذ ينفعل في حماس جنوني يقوم بتكرار المحاولة، وحينئذ يُصدم الصدمة الكبرى حينما يلمح الإنسان شبح الشيطان مجسماً وراء الخطية رابضاً في الأعضاء

التي صارت مِلْكاً له، متسلطاً بواسطتها على ملكات النفس وحركة الجسد تسلطاً عميقاً منظماً، خط خطوطه منذ زمان بعيد حتى أصبحت ذات أصول وذات ناموس!!

وأخيراً، وأخيراً جداً و بعد أن يستفرغ الإنسان كل جهده و يستعرض كل حيله وتفكيره، يقتنع أنه أسهل عليه أن يصرَّ الماء في منديل أو يجمع الريح في كفه أو يصعد السماء برجله من أن يضبط ناموس الخطية بإرادته أو يتسيطر على قوى الشر المتحركة في أعماق أعضائه!

هنا عمل المسيح... المسيح وحده، لأنه دان الخطية في الجسد!!

• • •



«لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع أعتقني من ناموس الخطية والموت» (رومية ٨: ٢).

ولكن قوة التوبة هي في المجاهدة المُصِرَّة لتملُّك روح الحياة في المسيح يسوع، ليعتق الجسد من ناموس الخطية بواسطة النعمة التي بها إذ نملكها يمكن أن نجاهد حتى الدم ضد الخطية، واثقين أننا بها سنكون أعظم من منتصرين «عالمٌ بمن آمنتُ» (٢تى ١: ١٢).

ليس هدف التوبة أن نتبرر أمام الله بفعل الندامة والكبت الظاهري للخطية بأعمال تكفيرية وتعذيب الجسد، ولكن هدف التوبة التقديس الداخلي بروح المسيح «ليُبطَل جسد الخطية» (رو ٦: ٦)، والتحرر من الخطية ذاتها في أعماق الضمير فيتبدد سلطانها و يتلاشى الخوف منها، فتصير النعمة هادية لحركات الضمير، قامعة لإنفعالات الجسد، ضابطة لميلاد الأفكار، مرشدة للنسك، ممتزجة بالتقشف، ملذذة للندامة.

ليس غفران الخطية هو كل عمل النعمة في الإنسان، ولا هو هدفنا النهائي من الإيمان بالمسيح؛ ولكن أن تُرفع الخطية من الأعضاء و يكف سلطانها و يتلاشى ناموسها من طبيعتنا، هذا هو غاية التوبة وغاية الإيمان، وهذا من سلطان النعمة العظيم.

المسيح انجرح جنبه على الصليب ليخرج منه ماء ودم لكل من يتوب و يُقبل إليه، الماء للغسل من دنس الخطية والدم لرفع سلطانها.

فبارك هو اليوم الذي انفتح فيه جنب المسيح على الصليب ليجد فيه الخاطىء بره وقداسته وفداءه.

تـــوبوا

« من له أذنان للسمع فليسمع »

ـــ لقد مهد يوحنا المعمدان، بالتوبة، الطريق لمعرفة المسيح وظهوره!!

ـــ بدون توبة عن الخطية، وندم على حياة الإستهتار، وعودة القلب إلى مخافة الله، يتعذر استعلان معرفة المسيح و ينحجب ظهوره الإلهي عن النفس!... «وأنا لم أكن أعرفه لكن ليُظهَر لإسرائيل لذلك جئت أُعمِّد بالماء... وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يو ١: ٣١و٣٤).

ـــ إذن، فكانت معمودية يوحنا بالماء للتوبة، ضرورة مطلقة حتى يُستعلن المسيح!

ـــ ولا تزال التوبة في كل حين وحتى هذه الساعة هي الطريق الوحيد الذي يوصلنا إلى التعرف على شخصية المسيح. فمن خلال ضغطة الحزن على الخطية والإحساس بالندم القاتل، نستكشف رحمة يسوع وقيمة دمه وقدرة لاهوته على الإقامة من الموت والهاوية!!

ـــ إذا لم نقف على خطر الخطية العاملة فينا ونحس في أعماقنا بسر الإثم، لن نقف يوماً على قيمة الدم الإلهي، ولن نحس أبداً بسر الفداء!!

ـــ وإن كنا لا نفحص ضمائرنا ونلومها وننازع أنفسنا عن قبائح حياتنا الداخلية وندينها ونكتشف في أخطائنا وشهواتنا وعيوبنا ونجاساتنا حقيقة أنفسنا،

فلن نشعر بأي حاجة إلى المسيح، ولا نجد ضرورة ملحة للتعرف عليه، و يظل لاهوته مجرد موضوع للإيمان يزداد و يتناقص بمقدار البرهان الفكري، أما الدم المسفوك على الصليب فيبدو وكأنه بلا داع أو كأنه لازمة من لوازم قصة الصليب وحسب!!

•••

ولكن يا لجلال الرب للقلب التائب!! و يا لقوة الدم للضمير الذي يئن من ثقل الخطية!! حينما تبلغ النفس إلى حقيقة ذاتها بعد أن تكون قد واجهت خطيتها بشجاعة وصمود دون تهرب أو اعتذار أو عطف كاذب... فحينئذ لا ترى مفراً من السقوط تحت خشبة الصليب!! ولا تعود ترى في يسوع موضوعاً فكرياً للإيمان بل حقيقة حياة من الموت، وخلاص من الهاوية.

«من آمن بي ولو مات فسيحيا»!!... «من آمن واعتمد خلص»!!

سؤال: وماذا يحتاج الإنسان الخاطىء ليقبل الإيمان بالمسيح، فيقبل الحياة والخلاص؟؟

الجواب: لا شيء!! فقط لا يعاند الصوت الداخلي، ولا يقاوم الدعوة!!...

«الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة **وهي الآن** حين يسمع الأموات (بالخطية) صوت ابن الله والسامعون يحيون»!! (يو ٥: ٢٥)

•••

بداية سيرة الخاطىء مع الله كبداية ميت في القبر...

ليس عليه واجبات، لأن ليس له حقوق في شيء! «ليس في الموت من يذكرك ولا في الجحيم من يعترف لك»...

إن الخاطىء الذي غرّته الخطية وقتلته يبدو وكأنه بلا نفس، بلا قوة على العمل، بلا حركة في الروح، بلا أذن للسمع، من أجل هذا جاء ابن الله، كلمة الله الحية، وأرسل صوته بالإنجيل ليزرع بكلمته أذناً جديدة في النفس الميتة لتسمع الإيمان وتعيه... وحين يسمع الخاطىء صوت ابن الله يحيا و يقوم من بين الأموات!!...

•••

الخاطىء إنسان في عرف الروح ميت... ولكن لا توجد خليقة مدللة لدى الله قط مثل هذا الميت المنتن بالخطية!!... «محب للعشارين والخطاة»!!...

فكل خليقة في الوجود إن في السماء أو على الأرض عليها أن تتحرك وتجهد وتثابر لتحيا، إلا الخاطىء، فلا يطالَب من الله أن يتحرك إلى شيء أو يجهد من أجل شيء أو يثابر على شيء إلا أن يقبل فقط صوت الله الحنون ولا يرفض دعوة حبه «والسامعون يحيون»!!...

صوت الله قوة ليست محيية فقط بل **وجاذبة** أيضاً، تستطيع أن تجذب النفس من أعماق الموت والهاوية وتقيمها من قبر الشهوات وتفكها وتدفعها، هذه الأمور يستحيل على النفس أن تؤديها من ذاتها، بل و يستحيل عليها حتى أن تشارك فيها ولا بشيء من الجهد، ولكنها مطالَبة فقط أن لا ترفضها...

ــ «لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ إن لم **يجتذبه الآب**.»

(يو ٦: ٤٤)

ــ «... ومن يُقبل إليّ لا أخرجه خارجاً» (يو ٦: ٣٧)

•••

وفي اللحظة التي يتقبل فيها الخاطىء صوت الله، تنزرع في نفسه الميتة أذن روحية «يوقظ كل صباح، يوقظ لي أذناً لأسمع كالمتعلمين، السيد الرب فتح لي أذناً وأنا لم أعاند، إلى الوراء لم أرتد.»

(إش ٥٠: ٤،٥)

وحينما تتفاعل الأذن الروحية مع هذا الصوت بنجاح، فالروح ينسكب في النفس خالقاً قلباً جديداً روحياً للإنسان من صنع الله، يبدأ في الحال ينبض بالإيمان والولاء للذي فداه من الموت وخلصه. وحينئذ يأخذ الإنسان قوة على التحرك نحو الله والإجتهاد لإرضائه والمثابرة على حبه...

هنا تبدأ سيرة جديدة للخاطىء تجاه الله الذي دعاه، واجتذبه من موت الخطية وفداه، وطهره من نجاساته وأحياه بدم يسوع المسيح وقوة قيامته من الأموات، هنا يصبح الخاطىء مطالباً ــ بعد أن ذاق ذلة الموت وتذوق مجد الحياة ــ أن لا يعود يسير بقدميه في طريق الموت! وأن يبغض الطرق الخادعة المؤدية إلى الهلاك!... و يبغض الإثم!...

و بقدر ما طهره الله ــ بر يسوع المسيح ــ من نجاسات الخطية القاتلة، أصبح مطالباً أن يسعى في إثر القداسة للحياة مع الله بقوة الله «نظير القدوس الذي دعاكم كونوا أنتم أيضاً قديسين» (١ بط ١: ١٥)

بل وأصبح من صميم سيرة الخاطىء المطهر بالدم الإلهي أن يُسرَّ ويفرح ويخبر بفضل الذي دعاه من الظلمة إلى نوره العجيب. (١ بط ٢: ٩)

فإن كانت بغضة الخطية القاتلة هي من صميم فعل الندامة والتوبة، فالفرح ببر المسيح وفعل دمه الماحي للذنوب والخطايا هو نور التوبة وبهجتها الذي يحفظ الخاطىء من النظر إلى الوراء و يؤمّنه ضد رعبة الموت الوهمية...

وهكذا يصبح الخاطىء ــ بعد أن يحصل على قوة التوبة بفرح برّ المسيح ــ قادراً أن ينطلق بإستمرار من تعقب الظلمة له ومخاوفها ، و يواجه نور الحاضر ورجاء المستقبل « الذي أنقذنا من سلطان الظلمة ونقلنا إلى ملكوت ابن محبته » (كولو ١ : ١٣) ، و يصارع ضد شرور هذا الزمان بلا خوف ، مستتراً في المسيح ومتشبثاً بدعوته حسب إرادته و بقوة دمه « الذي بذل نفسه لأجل خطايانا لينقذنا من العالم الحاضر الشرير حسب إرادة الله وأبينا » (غل ١ : ٥) .

• • •

الخاطىء يسعى بتوبته لميراث الملكوت ، **ولا يملك إلا قوة الدعوة** التي حظي بها ، كبرهان اختيار ونعمة ، تحوي في داخلها سر الدم الإلهي القادر أن يغسل و يطهر و يقدس إلى التمام وحتى النهاية بدون نقص أو عجز أو ملل من جهة الله ! !

• • •

ولكن كل خطية يقترفها الإنسان بعد ذلك عن وعي وإرادة و يكررها بعدم مخافة و بلا ندم وتوبة ، قادرة أن تصيب الأذن الروحية بالصمم والقلب الجديد بالتلف ، فلا يعود صوت الله يُسمع بقوته المحيية المغذية ، ولا يعود القلب ينبض بالإيمان الحي ، ولا تعود النفس قادرة على التحرك أو الإجتهاد أو المثابرة كما ينبغي ، وحينئذ تدب في النفس شيخوخة روحية مبكرة تنذر بالخوف والخطر ! ! « وإن ارتد لا تُسر به نفسي » .

• • •

كلمة الله لا تحيي مرة بل تحيي مرات ومرات لا تحصى و بلا عدد ، وصوت الله قوة تقيم لا من الأموات فقط بل أيضاً من الهاو ية ، ولكن لابد أن يتوب الإنسان

عنها باكياً نادماً في التراب حتى ولو كان ملكاً!! ولابد أن يطرح نفسه تحت توبيخ الكلمة وانتهارها مهما كان عظيماً، كمريض مدنف على الموت يسلم جسده لسلاح طبيب جراح. فالخطية سرطان الروح إذا استؤصلت مبكراً تنجو النفس، وإذا استُهين بها توغلت واستشرت وخربت، فهي لا تعيش إلا بموت الإنسان! « فاذكر من أين سقطت وتب واعمل الأعمال الأولى وإلا فإني آتيك عن قريب وأزحزح منارتك من مكانها إن لم تتُب» (رؤ ٢: ٥)

• • •



